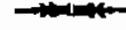


## شبان اليوم الجديد

في مصر المحروسة (\*)

للدكتور زكي مبارك



من عادة المربين والمصلحين أن يُكثروا من اللوم والتثريب على أبناء الجيل الجديد ، ليصوروا عيوبهم تصويراً يخوفهم عواقب التهاون والتفريط في حقوق الأدب والأخلاق وتلك وسيلة صحيحة من وسائل التهذيب وورثناها عن الأسلاف ، ولا بأس بالاعتماد عليها من حين إلى حين ، إذا سلكتنا في الدعوة إلى الأدب والأخلاق مسلك الترهيب ، وهو مسلك مطروق منذ أجيال طوال

ولكن التجارب علمتني أن الترغيب أنفع من الترهيب ، ومن تلك التجارب عرفت أن التنبيه إلى القسوى النافية في صدور الشبان قد يدلهم على حقائق أنفسهم فينتقلهم من حال إلى أحوال والحق أن الشاب المصري خَلِق ليكون رجلاً عظيماً ، ومهما أسرفنا في سوء الظن بشبان مصر ، فمن المؤكد أنهم

(\*) كان الصربون يصفون مصر بالمحروسة والحمية بعد نجاتهم من أخطار الحروب الصليبية

وأما صداقات الأدياء فالناقشات فيها أعجب وأطرب ! نحن نأخذ على الأستاذ الحكيم أن يضرب لنا المثل بصداقات الأدياء في أوربا لأنها لا تخلو من العلات ، فيجئتنا من يعترض فلا يكون اعتراضه إلا تكريراً لما قلناه ، وهو أن صداقات الأدياء الأوربيين ليست على المثال الذي تصوره الأستاذ الحكيم ! وأعجب من هذا وأطرب أن نشير إلى صداقات الأدياء في إنجلترا ونذكر بيرون وشلي فيكون الاعتراض أنهما لم يتقابلا في إنجلترا بل تقابلا في إيطاليا ... فهما إذن قد أصبحا من أدياء الأمة الإيطالية وخرجا من عداد الأدياء في الأمة الإنجليزية ! مثل هذا الحال لا نرد عليه ، ولا ننوي بعد اليوم أن نرد عليه . وحسبنا أننا لم نلق من قارى هنا إلا وقد رد على ذلك الاعتراض بالإعراض

« المحرطوم »

عباس محمود العقاد

بالإضافة إلى أمثالهم في الشرق والغرب أفضل وأشرف ، ومن النادر أن تجد شاباً مصرياً بلا آمال تضيفه إلى أكابر الرجال ، ولذلك شواهد يعرفها من يتصل بشبان « مصر » عن طريق الصحافة أو التأليف أو التدريس

الشاب المصري يبحث في كل لحظة عمن يبدله إلى طريق المجد ، ولو نشرت الصحف إعلاناتاً عن كتابين يختص أحدهما بوصف حياة الهزل والمجانة ، ويختص ثانيهما بوصف حياة الجد والرصانة ، لكان الكتاب الثاني هو الكتاب المنشود ، لأن شبان هذه البلاد مفضون على احترام الأدب السليم من شوائب الأمراض وآية ذلك أن الذاتية الأدبية تجدد أنصاراً من الشبان في كل وقت ، وهم يتحمسون لها تحمساً لا يخطر في البال ، وقد يتسامعون بمقالة جيّدة ، فيجدون في البحث عنها جداً يشهد بأنهم من أكابر أهل الأذواق والعقول

أكتب هذا وقد فاضت عيناى بالدمع حين تلقيت خطابات كريمة تصور فرح الشبان بالحديث عن أمجاد مصر المحروسة في القديم والحديث ، وهم شبان كان التاريخ المُعرض حدثهم أن مجد مصر ليس إلا أسطورة من أساطير الأولين وآه ثم آه من التزوير في التاريخ !

يا بني الأعزاء ، تذكروا — غير مأمورين — ثم تذكروا ...

ومن حبّات دمي أنظّم عقد الحديث فأقول :

في جميع الكنائس بالشرق والغرب تجدون صورة « العذراء » تحتضن « المسيح » وهو صبي في المهد ، فهل تعرفون كيف علقت تلك الصورة الرمزية ؟

علتها منذ أعوام بأنها تصوير لحنان الأمومة الرفيعة ، وجاز عندي القول بأن النصراني من اليونان هم المبدعون لذلك الرمز الدقيق . وهل ينكر أحد فضل البراعة اليونانية على الديانة المسيحية ؟

لا جدال في أن من ابتكر صورة المسيح تحتضنه العذراء كان أعظم مبتكر في تاريخ الأخلاق . ولا جدال في أن تلك الصورة كان لها تأثير عظيم في عطف الآباء على الأبناء . ولا جدال في أن تلك الصورة لم تُعرف قبل ميلاد المسيح ، وقبل أن تتصل مأساته بتاريخ اليونان والرومان ، كما كنت أقول ، وكما كان يجب أن سأقول ، لو طال جهلي إلى آخر الزمان !

وهل كفرت مصر في أيامها الخوالي حتى نجعل الكفران  
طَوْرًا من أطوارها في التاريخ ؟

إن القول بتمدد الآلهة كان في إحدى مراحل الإنسانية  
صورة من صور الهداية ، وهو لم يصدُر عن عناد ، وإنما صدر  
عن يقين ، ولله حكمة عالية في تنشئة الأفهام على نظام تنشئة  
الأبدان . فهو يسمو بها رويداً رويداً بترفق وتلطف ، إلى أن  
تقوى وتستحصد ، ثم يتركها لتصارع وتجادل في ميادين  
الزيغ والارتياب .

وتاريخ مصر يشهد بأنها فُطرت على إثارة الجد في تناول  
المعاني ، فكانت في عصر الوثنية أعظم أم الوثنية ، وكانت في عهد  
النصرانية أول أمة أرخت بمصارع الشهداء ، فلما هداها الله  
إلى الإسلام كانت الحافظة الواعية للأجداد العربية والإسلامية ،  
ولو قال قائل بأن مصر هي التي وقت العروبة والإسلام من تناول  
الغرب وتخاذل الشرق لكان أصدق الصادقين .

إسألوا العلم قبل أن تسألوا التاريخ بحدتكم أن ضياء الشمس  
في مصر لا نظير له في أي أرض ، حتى قيل إنه السبب الأول  
في كثرة أمراض العيون بهذه البلاد . واسألوا العلم أيضاً بحدتكم  
أن الخصب في أرض مصر يفعل بأهلها ما لا يفعل الجذب ، لأن  
أبناءها يموتون بالبطنة ، على حين يموت غيرهم بالجوع .

فما قولكم في أمة لا تعانى غير كثرة الزاد وقوة الضياء ؟  
أكتب هذه الفقرة من هذا المقال في منتصف الساعة الخامسة  
من صباح اليوم الثلاثين من يولية ، بعد قضاء نحو ساعتين تحت  
أزيز الطائرات وضجيج المدافع ، وكان القمر - القمر المصرى -  
يفغر الليل بنور وهاج يسمح بنظم الخيط في الإبرة بلا عناء .  
أنا لا أبالغ ، فقد بدا لي أن أجرب ذلك في قر هذه الليلة ،  
ولم أفهم كيف تحرم وزارة الوقاية إضاءة المصاييح وقت الغارات  
في الليالي القمرات ، وهي تعلم أن اللثام المعيرين يهديهم القمر  
بأقوى مما يهديهم المصاييح ؟

وهذا الطيران الذى يهدد مصر بوقاحة وتذالة وسفاهة هو  
نفسه الطيران المدين أثقل الدين لجو هذه البلاد .

هل نسيتم ما حدثتكم به على صفحات الرسالة قبل عامين ؟  
كنت حدثتكم أن الطائر المصرى المسمى بالحيدأة - وهو  
طيرٌ جارح لا ينجبه غير جو مصر ، وإن وجد بقلة في بعض  
الديار الشامية - كنت حدثتكم أن الحيدأة هي المعلم الأول لم

ولكن الله اللطيف بعباده ، أراد أن يطب الجلهى برفق  
ولطف ، لأنى طالب علم ، وطالب العلم لا يخطئه التوفيق ا  
فكيف اهتديت بعد ضلال ؟

رأيت صورة في الجزء الثانى من « التاريخ المصرى القديم »  
لأخى وصديقى ، وصاحب الفضل الأعظم على أدبى وبيانى ،  
عبد القادر حمزة باشا ، وهي صورة تغافل عنها عامداً متمعداً ،  
لأنتفع بمغزاهها بعد أن يموت ، وكان يعرف أنى لن أرتبه  
إلا بالفكر والروح ، وذلك أشرف الموارث

عبد القادر الوفى أراد أن يمنحنى فرصة من فرص التحليق  
في سماء الفكر والخيال ، فأثبت في الجزء الثانى من كتابه صورة  
أعفاها من التفسير والتأويل ، عن علم لا عن جهل ، لأقول فيها  
ما أشاء .

فما تلك الصورة الرمزية ؟

هي صورة « إيزيس » وهي ترضع ابنها « حوريس »  
وإذا عرفنا أن عبادة إيزيس كانت عقيدة اليونان والألمان  
والطليان والأسبان والفرنسيس والإنجليز أكثر من تسعة قرون  
أدركنا أن صورة « المذراء » وهي تحتضن « المسيح » ليست  
إلا صورة « إيزيس » وهي ترضع « حوريس »  
وإذن ؟

وإذن تكون مصر هي التي أبدعت فكرة الأمومة في  
الصور المسيحية . ثم ؟  
ثم تكون مصر صاحبة الفضل على ما أبدعت صور المذراء  
من فنون .

عبد القادر لم يلتفت إلى الصورة التي وضمها في الجزء الثانى  
من كتابه النفيس ، لأن الموت صرفه عما يريد أن يقول ، أو لأنه  
أراد أن يترك تفسير المراد من تلك الصورة لأحد أصدقائه الأعزاء  
والنتيجة أنه لا توجد صورة للمذراء في شرق أو في غرب  
إلا وهي مستوحاة من صورة إيزيس وهي ترضع حوريس .

ألم أقل لكم إن مصر هي وطن المعانى ؟  
من كان يصدق أن مصر هي الوطن الأصيل للصورة التي  
يخضع لصولتها الفرنسيين والإنجليز والأسبان والطليان والألمان ؟  
لم يكفر أحدٌ بأقبح مما كفر المصريون ، ولم يؤمن  
أحدٌ بأوثق مما آمن المصريون ، لأن مصر هي غاية الغايات  
في التعصب للكفر والإيمان .

مصر بأعنف مما يصابون ، فليجرب الأوروبيون حظهم في اضطهاد هذه البلاد ، لبروا أن مآلهم إلى الخسران

هل تذكرون قصة « هيس » أحد زعماء الألمان ؟

كان أول من فكر في الصلح بطريقة جديدة فامتطى طيارته من أرض الألمان إلى أرض البريطان ، ليتفاهم مع سديق له هناك ، ثم شاء الحزم الإنجليزي أن يمتاط فأوثقه بالقيود لئلا يكون في دعوته من المحتالين

فكيف نشأت فكرة الصلح عند « هيس » ؟

تلك فكرة نقلها عن الروح المصرى ، وقد وُلد في مصر ، ونشأ في مصر ، محوطاً بالرعاية من جيرانه المسلمين ، ولعله حفظ الآية التي تقول : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » فكان من أخباره في الاصطدام بالأثرة الأوربية ما كان . وسنترقب جلية هذا الخبر بعد زمن قصير أو طويل ؛ ولكن المؤكد أن نشأة هيس في مصر هي التي فرضت عليه الشوق إلى الصفاء<sup>(١)</sup> أما بعد فإني أنا مما أريد أن أقول ؟

هذا مقال غيرت عنوانه مرتين ، فقد كتبت شرطه الأول في صدر الليل ، وكتبت شرطه الثاني حين كانت « نجمة الفجر » توهمني أنها مصباح أرسلته الطائرات المنيرة لاستكشاف ضمير العداة وكان لي مع نجمة الفجر تاريخ سجله « الموالم » المعروف : يا نجمة الفجر طلّي وارجمي روحي

وسلّني لي على اللّبي عندهم روحي  
كفت أراعي نجمة الفجر بسبب الحب ، فصرت أراعيها بسبب الحرب ، وإن شقائي ليشترد كلما تذكرت أن موقفي موقف المشاهدين لا موقف المحاربين

ليس في نيتي أن أحو حرفاً من هذا المقال ، لأنني لا أريد أن أرجع إليه بالتغيير والتبديل ، فكيف كان البدء حتى ينسجم مع الختام ؟

لعلني قلت إن صورة إيزيس وهي ترضع حوريس هي التي أوحى صورة المنذراء وهي تحتضن المسيح . ولعلني قلت إن مصر وجهت العالم كله إلى فنون من معاني العظمة والخلود . ولعلني قلت إنها هدت بني آدم إلى فكرة الطيران في سماء الواقع بعد أن هدتهم إلى الطيران في سماء الخيال

(١) فرار هيس من ألمانيا شاهد صحيح على نبرته من الولوغ في العناء ؛ وقد استراح وأراح

الطيران ، وبها استهدى « مويار » المسكين ، الذي ظل على سرير الموت ثلاثة أيام بإحدى الغرف السطحية في شارع الموسكى بالقاهرة ، ولا أئبس لجسمه الميت غير أسراب من الحداة تراوحت وتناديه في حسرة والتمتع ، إلى أن تنبه لموته الجيران

في ليلتي هذه عانت « مصر الجديدة » من صراع الطيارات المنيرة والمدافعة ما عانت ؛ مع أن مصر الجديدة هي الوطن لتمثال مويار ، مويار الذي نقل عن « الحداة المصرية » علم الطيران فيارب الأرباب ، ما الذي بقي مما طويت عن أوروبا من أعاصير الغدر والعقوق ؟

إن الأمم الأوربية تحترم حياد الديار السويسرية ، فهل تعرفون لأي سبب يُحترم ذلك الحياد ، في تلك البلاد ؟ هل كانت سويسرا مهد موسى أو عيسى أو محمد ؟ هل نشأ فيها بوذا أو كونفشيوس ؟ هل كانت ملاذ آدم حين هبط الأرض ؟ لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ، وإنما يحترم زعماء أوروبا حياد سويسرا لتكون تلك الديار خزائن أمينة لا يدخرون من نفائس الأموال ، فهم يتضامنون تضامن الجشع لا تضامن الوفاء

فما ضرهم لو أعفوا مصر من صيال الطيارات ، لأنها الوطن الذي أوجب علم الطيران ؟

ما ضرهم لو تذكروا دين مصر في أعناقهم ، وهي أول أمة وضعت التقويم الشمسي ، فعلت أم الأرض مواعيد الزرع والحصاد ؟ ما ضرهم لو تذكروا أن الفلاحين الذين سُخِّروا لحفر قناة السويس ملأوا جيوب الأوربيين بالملايين والبلايين من قطع الذهب الفتنان ؟

ما ضرهم لو تذكروا أننا ما بقينا عليهم ، وأن الفضل يرجع إلينا في نقل علومهم وآدابهم إلى أقطار الشرق ؟

ما ضرهم لو تذكروا أن اليونان الذين علومهم لم يكونوا إلا تلاميذ المصريين ؟ وما ضرهم لو تذكروا أنهم لم يفكروا في تخليد عظيم من عظماهم إلا بوحي من علم قدماء المصريين ؟

سويسرا تتمتع بالحياد الدائم ، لأنها مستودع ذخائرهم وكنوزهم ، أما مصر فليس لها في أذهانهم غير الصور التاريخية ، والويل كل الويل لمن يك في عجد التاريخ

ولكن مصر ، لو عقلوا ، صاحبة الفضل على أبنائهم في العصر الحديث ؛ فقد أُنشئت منهم الألوف وألوف الألوف ، والضمير المخوف على مصر لن يُعفى أولئك الأبناء ، ولن تصاب